فصل 11

المظاهر والأزياء

الوشم

ما هو الشكل الفني الذي كان يشير، في أوقات مختلفة من التاريخ، إلى الملَكية والولاء والإجرام والانتساب إلى الرابطة العاجية (اتحاد جامعات في شرق الولايات المتحدة معروفة بمستواها الأكاديمي الممتاز)؟ نعم، الوشم، أو فن رسم أشكال دائمة على جلدك باستعمال إبر ساخنة، ومؤلمة. من الكلمة التاهيتية تاتو، وتعني «ترك علامة»، كان الوشم مستعملاً عبر تاريخ البشرية لتحديد المكانة الاجتماعية والقيام بطقوس دينية ووضع رموز دائمة على القراصنة والجواسيس، وإعلان استقلال الشبان.

وكان ما بدأ في الولايات بوصفه جزءاً من حركة الهيبي (لا تعترف بالعادات والتقاليد الاجتماعية وتعبر عن ذلك بمظاهر شاذة) وعصابات الدراجات النارية، قد أصبح شائعاً - بالنسبة للشبان، وأصبح الحصول على وشم شائعاً جداً مثل ثقب الأذنين. كان الوشم قد أصبح موضة.

كان الشعر مرة علامة على التمرد وتميّز الشخصية في مواجهة والدين ومجتمع خائف مما يجري. يبدو الآن أن الشعر قد أصبح قصيراً، مع انتشار الصلع بين الرجال أكثر من الشعر الطويل. كان الفن على الجسد قد أصبح الطريقة التي يحب المزيد منا استعمالها للتعبير عن تميّز شخصيته، في أمريكة وحول العالم. وبخلاف الشعر الذي يمكن للجميع رؤيته بنظرة خاطفة، الوشم مخفي عادة ويكون جزءاً من شخصيتنا الخاصة، ولا يتم الكشف عنه إلا للذين يُسمح لهم برؤية الصورة الداخلية كاملة، أو أولئك الذين يشاركوننا غرفنا المغلقة.

لهذا في حالة كنت لا تزال تربط الوشم براكبي الدراجات والبحارة والمجرمين، أو أشخاص آخرين، ينبغي أن تتخلى عن تلك النظرة، ويُفضّل أن يكون ذلك قبل أن تعود ابنتك ذات العشرين ربيعاً -التي تدرس في الجامعة وينتظرها عمل رائع- إلى المنزل

في عيد الشكر مع وردة حمراء، أو ربما رمز صيني عن العفة، مطبوعاً على ردفها. وفقاً لاستطلاع رأي أجراه مركز هاريس Harris سنة 2003، أكثر من 1 من كل 3 أمريكيين تتراوح أعمارهم بين 25-29 سنة لديهم وشم. لدى ربع طلاب الجامعات تقريباً وشم. (نحو 13 % تقريباً من الأمريكيين الذين تتراوح أعمارهم بين 18-24 لديهم وشم وثقب في الجسد، دون حساب النساء اللواتي يثقبن آذانهن).

العدد التقريبي للأمريكيين الذين لديهم وشم
بأعمار بين 18-49، 2003-2006

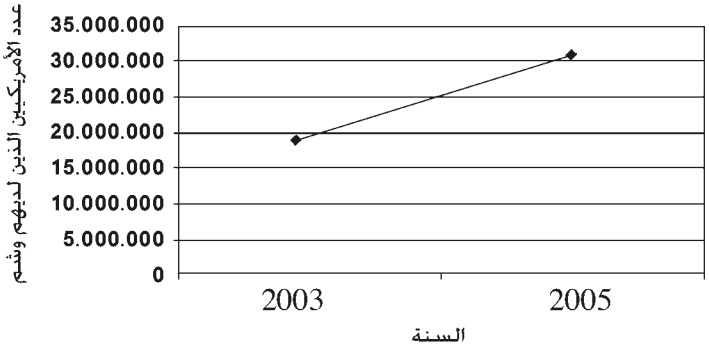

المصدر: صحيفة الأكاديمية الأمريكية لأمراض الجلد. الإحصاء العام في الولايات المتحدة، 2003-2006.

بوجه عام، ابتداءً من سنة 2006، أكثر من 30 مليون أمريكي -أو قرابة 1 من كل 4 راشدين- لديهم وشم، ارتفاعاً من أقل من 20 مليوناً بقليل قبل ثلاث سنوات.

ظاهرة الوشم هذه ليست محصورة بالولايات المتحدة فقط. يصطف أشخاص في بريطانية وأسترالية واليابان لوشم أجسادهم. زهاء 8 % من المراهقين الكنديين لديهم وشم، وفقاً لدراسة أُجريت سنة 2000، و61 % من هؤلاء المراهقين فتيات.

وهكذا، في حين كان الوشم سابقاً علامة على المنزلة الوضيعة، أصبح الآن طقساً للجميع. الفتيان يفعلون ذلك؛ الفتيات يفعلن ذلك؛ والناس الذين يضعون اللآلئ يفعلون ذلك. بالفعل، في استطلاع هاريس، تتألف المجموعة الأفضل دخلاً بين الأمريكيين الذين يضعون وشماً (22 %) من أشخاص يجنون أكثر من 75.000 دولار. بالمقارنة،

عرّض 8% فقط من الناس الذين يجنون بين 15.000-25.000 دولار أجسادهم لفرشاة الرسم الكهربائية. بكلمات أخرى، كنت أكثر ثراء هذه الأيام، كلما كان احتمال حصولك على وشم أكبر.

جزء من الإغراء هو، دون شك، التمرد. صورة يابانية تدل على الحياة أكثر، لنقل، مما يمثّله والدان ضيِّقا الأفق. رياضي صغير أو رمز ثقافي يريد تقديم هوية خاصة به، أو أن يجعل حرفياً من نفسه «علامة تجارية» لأنداده. مثل لفائف التبغ في السبعينيات أو سيارات معدّلة في الخمسينيات، الوشم اليوم طريقة مبتكرة لكنها ليست خطيرة جداً يقوم في أثنائها أولاد الطبقة الوسطى بإظهار الجانب الحماسي منهم.

لكن الوشم ليس شيئاً يدل على التحرر والتمرد فقط. بالنسبة لأشخاص أكثر تحفظاً، يمثّل الوشم أيضاً الانضباط والولاء. هل هناك طريقة لإظهار المُثل المحافظة الجوهرية التي تعبر عن الديمومة والالتزام أفضل من دمج فكرة (أو شخص) في شخصيتك؟ وفقاً لاستطلاع هاريس، 14 % من الجمهوريين في الولايات المتحدة لديهم وشم. على الرغم من أن تلك نسبة أقل بقليل مما لدى الديمقراطيين، إلا أنها بالرغم من ذلك تعني أن زهاء 7 ملايين جمهوري لديهم وشم يجولون في أنحاء أمريكة.

لماذا الوشم؟ وفقاً لاستطلاع هاريس، يقول واحد من كل ثلاثة أمريكيين: إنه يجعلهم يشعرون بأنهم أكثر إثارة، بما في ذلك نحو نصف النساء اللواتي لديهن وشم. يقول واحد من كل أربعة لديهم وشم: إنه يجعلهم يشعرون بأنهم أكثر جاذبية.

وهناك الكثير من المشاهير الذين لديهم وشم. لدى نجمة السينما أنجلينا جولي اثنا عشر وشماً على الأقل، بما في ذلك تنين في أعلى ذراعها الأيسر (الذي كان عليه «بيلي بوب»، حتى انفصلا وقامت بإزالة اسمه بالليزر). ظهر نجم الراب 50 سنتاً مغطى بأكمله بالوشوم. تحمل بريتني سبيرز وشومَ جنّية وزهرة الربيع وفراشة والرمز الصيني لـ«الغموض» وثلاثة حروف عبرية على قدميها وبطنها وعنقها. وشم نجم كرة القدم ديفيد بيكهام أسماء زوجته وولديه على ذراعه وظهره.

وحتى لا ننسى هؤلاء الجمهوريين، يقال: إن وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز كان لديه وشم نمر على أذنه من الخلف - ادّعاء رفض أن يؤكده أو ينفيه.

لكن بينما ينتقل عملاء الوشم من المجرمين إلى طالبات الجامعة، من المحرومين إلى الأثرياء، ما هي التأثيرات المحتملة بالنسبة لأمريكة؟

أولاً: ربما يرغب فنانو الوشم في فعل ما تفعله كل خدمة يتسع نطاقها - ينتقلون إلى مستوى أعلى، يضعون أنظمة وقواعد مناسبة، يزيدون الأسعار، يحدّثون التصميمات والرسوم، ويقومون بإنشاء مؤسسات قومية، ويختارون بعض المشاهير؛ ليتحدثوا باسمهم. (تستطيع جولي أو بيكهام وحدهما بيع ملايين نقوش الوشم على التلفاز). هناك الآن تقديرات تشير إلى وجود من 4000 إلى 15.000 دار وشم في الولايات المتحدة، ارتفاعاً من 300 قبل عشرين سنة فقط. هذه سوق محتملة بمليارات الدولارات - إنه «الفن على الجسد»، ويشهد طلباً متزايداً - ومع ذلك لا تزال تقدمه متاجر عائلية تبيع بطاقات قصور وتنانين. أين مكدونالدز McDonald's من الوشم - مع العلامة التجارية الموحدة، وضمانات الأمان، والإعلان القومي؟ (وأين لو سيرك Le Cirque، مع نخبة الفنانين لنخبة العملاء؟). إن دفع هذا العمل إلى مستوى أعلى قد يضاعف حجم السوق بين ليلة وضحاها.

انظر إلى التغييرات في السياسات الرسمية، أيضاً. على الرغم من أن خفر السواحل الأمريكي لا يزال يرفض ضم شخص لديه وشم ظاهر، أو ما يغطي أكثر من 25 % من ذراعه أو ساقه، غيّر الجيش سياسته سنة 2006 وسمح بوشم اليدين أو العنق طالما أن الوشم لم يكن «متطرفاً، بذيئاً، مثيراً أو عنصرياً».

هل يخرق ذلك التقييد «التعديل الأول»؟ كما كان الشعر الطويل غير مرغوب سابقاً، ألا يعد الوشم دستورياً غير مقبول، أيضاً؟ هل لا يزال اليوم الذي سيكون على المحكمة العليا التدخل فيه بشأن الوشم بعيداً أيضاً؟ (هل سيقوم أي شخص يترافع لإنقاذ موكله بالكشف عن سر شخصي تحت الأثواب السوداء؟). تخيل تأثير قانون يقضي بأن الوشم جزء من حقوقنا غير القابلة للتصرف.

تسمح غوغل Google وياهو Yahoo! لموظفيهما بالوشم. وكذلك تفعل فورد Ford وويلز فارغو Wells Fargo. لا تزال هناك شركات تحظر على موظفيها الوشم - مثل ستاربكس Starbucks، ومكدونالدز McDonald's، وبلوكبستر Blockbuster، والعديد من أقسام الشرطة في البلاد - لكنها قد تغير سياساتها قريباً؛ لأن حظر الفن على الجسد ربما يحرمها من العديد من المواهب الشابة.

وربما تحتاج الحكومة الاتحادية إلى القيام بعمل ما، أيضاً. حتى اليوم، لم تضع هيئة الأغذية والأدوية ختم موافقتها على أي صبغة أو حبر للوشم، لكن إن ارتفعت أعداد الوشوم في أمريكة كثيراً، ربما تقرر الوكالة أنها بحاجة للتدخل.

بالطبع، المثير للدهشة بشأن الأشخاص الذين يضعون الوشم أنهم في مسعاهم لإظهار ميزة صغيرة -الجانب السيئ من الفتى والفتاة- ينتهي بهم الأمر في الواقع بالانضمام إلى حشد كبير. آه بالتأكيد، النمر الآسيوي على أعلى الكتف. لقد كنت هناك، أرسم ذلك بالحبر.

السؤال هو ما النزعة المقبلة، إذا كان ثقب الأذن قد أصبح شيئاً محافظاً، الوشم شائع، وثقب الجسد غير ذي أهمية. هل سيصبح الجسد مساحة للإعلان؟ إذا كنت تستطيع حمل الفن، فلماذا لا تصبح لوحة إعلانية؟ ماذا عن 10 دولارات بالساعة مقابل التجوال على شاطئ مع وشم «اشترِ نظارات شمسية؟».

ربما لم تتطور صناعة الوشم إلى المستوى الآتي؛ لأن الناس يعتقدون أنها موضة زائلة - مثل الطوق الخشبي. لكن على الأرجح، فإن استعمال أجسادنا لعرض بيانات سياسية وجنسية ورومانسية وودّية ظهر ليبقى، وستتطور التقانة لتساعد في إزالة الوشوم، ورسم وشوم ثلاثية الأبعاد، ووشم متوهجة. إضافة إلى ذلك، يحب الناس الذين يضعون وشماً التواصل مع أشخاص آخرين يحملون وشوماً أيضاً - مع ازدياد أعداد هؤلاء، يبدو أن الأرقام سترتفع بمرور الوقت.

الفوضى والترتيب

لطالما عدّت أمريكة نفسها بلداً يثمّن الترتيب. لم تكن البتة بلداً يتمسك بالشكليات - لكنها بلد تسمع فيه «أبعد أغراضك» كل يوم في عشرات ملايين المنازل.

الترتيب هوس يغذي صناعة بـ6 مليارات دولار من منتجات تنظيم المنزل، مثل سلال البلاستيك وخزائن الملفات. ننفق 3 مليارات دولار زيادة على ذلك في محاولة لتنظيم خزائن ملابسنا. كل رأس سنة جديدة، نعقد العزم على «تخفيف الفوضى» بقوة عزمنا نفسها على تخفيف الوزن.

وعندما لا تدفعنا أمهاتنا لنكون أكثر ترتيباً، يتولى الدين زمام الأمور. يقال: إن «النظافة بعد الإيمان» حكمة عبرية من القرن الثاني. يعدنا الإنجيل بوجودنا «40 يوماً في المطهر». في الإسلام، يقال: إن «النظافة والترتيب شطر الإيمان». وجدت دراسة حديثة أن ثلثينا يشعر بالذنب أو الخجل من الفوضى التي يعيش فيها.

لكن بالرغم من الضغط التجاري، والثقافي، والديني لـ«تنظيف أفعالنا»، هناك مجموعة متنامية من الأمريكيين الذين لا يريدون، أو لا يفعلون، أو لا يستطيعون. ولا يعزى السبب إلى أنهم يحبون الفوضى، أو يعتقدون أنها عامل عتق أو إلهام. إنهم غارقون في الفوضى، ونظراً لحجم الأشياء في حياتهم، كانوا قد قرروا ببساطة ألا شيء يستحق الترتيب، والتصنيف، والفرز.

وعلى الرغم من أن فلسفتي الشخصية هي إبقاء كل شيء مرتباً بأناقة، إلا أنني تبنيت مقاربة نفعية فيما يتعلق بالتصنيف والترتيب. إذا كنت ستنظر إلى شيء ما مرة واحدة على الأغلب، هذا إذا نظرت إليه أصلاً، فلا تضعه في ملف. مثلاً، في سنة 2006، قم برمي كل الفواتير في سلة -«فواتير 2006»- ولا تزعج نفسك بإنشاء ملف لكل نوع

مختلف من الفواتير. إذا احتجت يوماً للعثور على شيء، فاقض بعض الوقت في تصنيفها كلها. إنه نظامي الخاص لإبعاد نفسي عن الغرق في تصنيفٍ غير ذي جدوى، حتى لو كان كل شيء تقريباً موجوداً اليوم إلكترونياً. لكن المزيد من الناس يتبنون فلسفة أبسط حتى -تخلى عن كل شيء واستسلم لما يحدث لك- ودع الفوضى تبدأ.

في ربيع 2007، أجرينا استطلاعاً سريعاً للرأي لاكتشاف من هم الفوضويون في أمريكة، وإلى أي حدٍ هم كذلك مقارنة بجميع من سواهم. عرّفنا «فوضوي» بأنه شخص يقول عن نفسه أو نفسها: إنه «فوضوي جداً»، أو من يقول: إن آخرين سيدعونه أو يدعونها فوضوية، أو أي شخص يقول: إن الفوضى قد عملت على إبطاء حياته أو التخفيف من جودتها. كانت نسبة مثل هؤلاء الفوضويين في أمريكة نحو 1 من كل 10. من بين 200 مليون راشد في أمريكة، هذا يعني 20 مليون شخص.

أغلبية الفوضويين ليست، كما تكون قد تخيلت، ذكوراً. يفوق عدد الرجال عدد النساء، لكن بنسبة 55 إلى 45 %. وليس الفوضويون كسالى أو غير ناجحين. أكثر من 2 من كل 3 منهم موظفون بدوام كامل، ومن بين أولئك الذين لديهم أولاد، معظمهم لديهم أطفال تحت سن الخامسة. قاموا على الأرجح أكثر من غير الفوضويين بإنهاء دراستهم الجامعية و/أو الثانوية. نسبة من يجني منهم أكثر من 100.000 دولار سنوياً أعلى بمرتين من غير الفوضويين. ونسبة من يعرّفون عن أنفسهم بأنهم متحررون أعلى بمرتين تقريباً من نسبة غير الفوضويين (37 مقابل 19 %)، مع نسبة جديرة بالملاحظة تبلغ 47% من الفوضويين يقولون: إنهم ديمقراطيون.

يقوم أقل من 1 من كل 4 بترتيب أسرّتهم على نحو يومي. يترك أكثر من 1 من كل 3 أطباقاً متسخة في المغسلة أكثر من يوم. يترك نحو 15% أطباقاً متسخة في حجرته الخاصة، أو غرفة المعيشة، أو غرفة النوم مدة أطول من يوم. عندما يخلعون ملابسهم في الليل، يرمي نحو 4 من كل 10 ثيابهم على الأرض. يترك واحد من كل 3 طاولة المطبخ دون تنظيف أكثر من أسبوع، إن لم يكن مدة أطول.

في سنة 2007، نشر خبيرا العمل غيريك أبراهامسون وديفيد إتش. فريدمان فوضى كاملة، كتاب يشرح وضع الفوضويين. قالا: إن مكاتب فوضوية ترتبط بالحكمة، والخبرة، ورواتب أعلى (يتوافق هذا مع نتائج استطلاعنا، على الأقل لمن يجني أكثر من 100.000 دولار). قالا: إن الفوضى تسمح بظهور سجايا ضرورية لتحقيق الإبداع - مثل الارتجال، والقدرة على التكيّف، وموهبة اكتشاف الحلول. (لو أن ألكسندر فليمنغ لم يكن فوضوياً بما فيه الكفاية ليترك أطباق مختبرات متسخة حول مكتبه، لما كان قد اكتشف البنسلين). قالا أيضاً: إن الفوضويين يصبحون آباءً أفضل - يركزون على الحنان والاهتمام بالعائلة، بدلاً من جلب الدمى وطاولات القهوة.

أشار بعضهم أيضاً إلى أن النظافة تقتلنا. بدأ الأطباء الآن إعادة النظر في «فرضية العادات الصحية» - فكرة أن سبب الارتفاع الحاد للإصابات بالربو والحساسية هو عدم التعرض لجراثيم معينة. يقال: إن مبيضات الكلور التي تمحو آثار كل ما يسكبه المرء على الملابس، تسمم مئات الأطفال سنوياً، وقد تكون لها علاقة بسرطان الثدي لدى النساء ومشكلات العقم عند الرجال. كان قد تم ربط المبيدات، العلاج لكل مشكلات المروج الخضراء، بفقدان الذاكرة القصير المدى، وعدم تناسق حركة اليد مع العين، وضعف موهبة الرسم عند الأطفال. فجأة، تصبح الأشياء المتسخة سليمة، إن لم تكن صحّية تماماً. ربما يكون معارضو المطهّرات على حق.

لكن استطلاعنا وجد أن معظم الفضوليين لا يقبولون الفوضى التي يستسلمون لها. لا يهتمون بإثبات أن الفوضى ليست فوضى، بقدر ما يهتمون بإدارة تجربتهم الخاصة معها. قال أكثر من ثلثي الفوضويين إنهم يتمنّون لو كانوا أكثر ترتيباً (ولم يتمنَّ أحد أن يكون أكثر فوضى). وافق ثلثا الفوضويين: على أن الترتيب يساعد الناس في السيطرة على حياتهم. لا يدافع أي من الفوضويين تقريباً عن الفوضى، ويقول أقل من 1 من كل 4: إنها تساعدهم على الإبداع. بالفعل، قال أكثر من نصف الفوضويين إنهم لا يستطيعون العيش في فوضى - قرابة عدد غير الفوضويين: الذين قالوا ذلك. لا تحاول هذه المجموعة تغيير وضعها الفوضوي، وإنما إدارة فوضاها فقط.

عندما سُئل الناس: لماذا تغرق منازلهم في فوضى؟ قال كل من الفوضويين وغير الفوضويين: إن الأمر لا يتعلق بالاعتداد بالنفس واللامبالاة، أو حتى ضغط الوقت. ألقوا باللائمة على وجود عدد كبير من الأشياء. يشكل امتلاك الكثير، والقليل من الأماكن لتخزينها فيه، أكثر من نصف السبب الذي يجعل فوضويي أمريكة يعانون الأمرّين.

ما هو أهم سبب يجعل منزلك متسخاً أو غارقاً في الفوضى؟		
	الجميع	الفوضويون
هناك الكثير من الأشياء	29	33
ليس لدي وقت لإبقائه نظيفاً مرتباً	18	22
ليست هناك مساحة تخزين كافية	17	18
لا يتسخ منزلي أو يغرق في الفوضى	22	16
أنا/نحن لا نهتم إن كان غارقاً في الفوضى	4	8
تساعدني الفوضى على الإبداع	1	2
لا أعرف	7	2

وهكذا، هذه نزعة عن الوفرة في أمريكة- مما يجعلها أقل ارتباطاً بالكسل، وأكثر شبهاً بالبدانة. لدينا فائض من الممتلكات، كما لدينا فائض من الطعام. لهذا يزداد عدد الفوضويين بين الأثرياء. كلما كان ما نستطيع شراءه أكثر اشترينا أكثر فعلاً - ونجني، ونكسب، ونجمع، ونحتفظ بكل ذلك. وعلى الرغم من أن العديد من الناس يخرجون وينفقون على المزيد من الأشياء التي تساعدهم على تنظيم أشياء أخرى، إلا أن الفوضوي يعيش ببساطة وسط ذلك، ويسمح للفوضى أن تصبح بيئته الطبيعية، بدلاً من غسل طبق وجوربين متسخين في كل مرة.

تأثيرات هذه الظاهرة مهمة. أولاً، إذا كنت تعيش مع فوضوي، فتوقف عن إزعاجه. قال 76 % من الفوضويين: إنهم يكرهون أن يزعجهم أحد بشأن وضعهم الفوضوي - مثلما لا يحب البدينون عادة سماع شكاوى أزواجهم (أو تناول كميات أقل من الطعام نتيجة لذلك). الفوضويون ليسوا منفتحين للإقناع المنطقي في هذا المجال، وتنتابهم مشاعر سيئة بما يكفي عن أنفسهم من ذلك.

وإذا أظهرنا جميعاً بعض التساهل، فربما ستصبح الحياة أكثر متعة. نحن في عصر الآباء فيه أكثر تساهلاً، والتعبير عن النفس أكثر وضوحاً، والخيارات الشخصية أكثر اتساعاً. ربما لا يكون الترتيب شيئاً من الماضي، لكن بالنسبة لـ1 من كل 10 أمريكيين، إنه مجرد أحد تلك المُثل التي لا يمكن تحقيقها؛ نظراً لضغط العمل والمسؤوليات. يشكل الفشل في الوصول إلى المستوى المتوقع لمعايير الترتيب الحديثة، كما أظهر استطلاعنا، مشكلة «الطبقة المخملية». كلما كنت أكثر ثراءً، وتعليماً، وانشغالاً، زاد احتمال أن تكون أحد أعضاء طبقة متنامية من الأمريكيين الفوضويين.

محبو الجراحة

أجرت صديقة لي خجولة جداً أخيراً جراحة تجميلية، وقد وجدت أن نتائجها رائعة ولا تسبب أي ألم. لأسابيع بعد ذلك، أذهلت الجميع بسؤالها لهم: «ماذا ينبغي أن أفعل أيضاً؟ هل أحتاج إلى عملية للأنف؟ هل ينبغي أن أشتري بعض السليكون؟».

لو أنها أجرت أياً منهما، لكانت حصلت على الكثير من الأصدقاء. كانت «الإجراءات التجميلية»، على اختلاف أنواعها، قد أصبحت شائعة في أمريكة أخيراً، حتى إنه مع شفط الدهون، والليزك (تصحيح عيوب البصر بالليزر)وتصحيح الأنف وتصغير المعدة -والإجراء المفضّل، زرع رموش العين- أضحى من النادر أن تجد أمريكياً لم يتطوع للاستلقاء تحت المبضع.

ما كان يعد سراً لطيفاً لامرأة بيضاء، ثرية، متقدمة في السن قد انتشر الآن إلى الجميع - بما في ذلك أشخاص يافعون، متوسطو الدخل وليسوا من العرق الأبيض. في سنة 2005، قال 41 % من الجرّاحين الذين جرى استطلاع آرائهم: إنهم يعالجون مراهقين. اعتبر 1 فقط من كل 8 أشخاص أن الجراحة التجميلية تتطلب دخلاً أكثر من 90.000 دولار؛ واعتبرت أكبر مجموعة (41 %) أنها تتطلب دخلاً بين 31.000 و60.000 دولار. ومن سنة 1999 وحتى 2001، ازداد عدد الأمريكيين - الأفارقة، الأمريكيين - الآسيويين، وأولئك من أصل لاتيني الذين يسعون لإجراء جراحة تجميل وترميم للوجه بنسبة تفوق 200 %.

آه، والرجال. من 12 مليون عملية تجميل تم إجراؤها سنة 2004، أكثر من 1 مليون كانت لرجال. (في سنة 2005، كانت هناك زيادة بنسبة 417 % في عدد الرجال الذين

أجروا عمليات «تقشير جلد» - هذا يعني إزالة الطبقة الخارجية من الجلد بالليزر وتسخين الكولاجين الموجود أسفل تلك الطبقة لتجديد الجلد). قبل عشر سنوات، لم يكن ليتم القبض البتة على رجل فوق طاولة جرّاح تجميل. الآن، يحاول الرجال البقاء في المنافسة ضمن العمل بالظهور أكثر شباباً وحيوية، ويحاولون مجاراة زوجاتهم الشابات دائماً.

في الواقع، قال 1 من كل 3 جرّاحين جرى استطلاع آرائهم: إنهم يرون الأزواج والزوجات يأتون معاً لإجراء تعديلات تجميلية معاً. قال خُمس الجرّاحين: إن الأمهات والبنات يأتين معاً - قالوا: إن العمليات الأكثر رواجاً هي شد الوجه للأم وتكبير الصدر للابنة. العائلة التي «تتضامن» معاً تقوم بإجراء العمليات معاً.

ما كان سابقاً سراً للسيدات يتغامزن عليه (إذا بقيت رموشهن تطرف)، أضحى الآن شيئاً علنياً يسعى إليه الجميع. كانت تقانات جديدة قد جعلت الأمر في منتهى السهولة. يمكنك إجراء عملية في يوم، أو في أثناء استراحة الغداء لبعضها، وبخلاف أيام سابقة كان المرء يحصل فيها على «إجازة طويلة»، لم يعد هناك اليوم أي مدة نقاهة عملياً. تكلف الكثير من الإجراءات أقل من سعر حاسب محمول جيد. ما الذي لن تحبه في الأمر؟

لا شيء، كما هو واضح. منذ سنة 1997، كان هناك ارتفاع بنسبة 444 % في الولايات المتحدة بعدد الإجراءات التجميلية، سواء كانت شد الوجه، أو تكبير الصدر، أو ترميم الجلد، أو حقن الدهون (في الشفتين). أنفق الأمريكيون نحو 12.4 مليار دولار على الإجراءات التجميلية سنة 2005 - المبلغ نفسه تقريباً الذي أنفقناه على الرشاقة والتمارين الرياضية. لماذا تعمل لجعل جسدك أكثر رشاقة إن كنت تستطيع جعله أفضل بالمال؟

لكن إليك ما يثير الاهتمام فعلاً، والقلق أيضاً. على الرغم من أن عدد الإجراءات التجميلية كان قد ارتفع على نحو كبير، إلا أن عدد الأشخاص الذين يقومون بها لم يرتفع إلا بمعدل أبطأ. بكلمات أخرى، يقوم الأشخاص أنفسهم في أمريكة بأكثر من جراحة تجميلية واحدة.

هؤلاء ليسوا أشخاصاً مدمنين على الألم، والذين يلجؤون إلى الجراحة بالطريقة نفسها التي يخضع بها الناس للفوضى. هناك أشخاص، يُدعون أحياناً «عبيد المشرط»، يقومون بإجراء عشرات الجراحات التجميلية، ويفكرون باستمرار في أن العملية المقبلة ستصلح مشكلة مستعصية في حياتهم. إذا لم يوقفهم الأطباء عند حدٍ معين، فقد ينتهي بهم الأمر بأن يبدوا غير مألوفين، وحتى غريبين. (مايكل جاكسون، أي أحد آخر؟).

لكن إلى جانب «عبيد المشرط» المرضى بالتأكيد، هناك مجموعة متنامية من الأمريكيين العاديين الأصحاء الذين يجربون إجراءً تجميلياً واحداً أو اثنين، ويقررون أنهم أصبحوا رائعين وينبغي عليهم إجراء بعض العمليات الأخرى.

في سنة 2005، قام أكثر من نصف مرضى جرّاحي الوجه بإجراء أكثر من عملية واحدة - ارتفاعاً من 28 % سنة 2001.

صحيح، يعكس هذا الارتفاع الكبير استعمالاً أكبر لتداخلات جديدة تدعو إلى معالجة مستمرة، مثل البوتكس Botox ومواد التقشير الكيميائية. لكن هؤلاء أشخاص لا يعملون إلا على الوجه فقط. لو أن المعدل كان يصل إلى نصف الأشخاص الذين يقومون بأي إجراء تجميلي، أو، لنقل، على مدى ثلاث سنوات بدلاً من واحدة، سيكون لدينا أكثر من 2 مليون شخص في أمريكة كانوا قد أجروا عملاً تجميلياً اختيارياً على نحو متكرر على أجسادهم.

يريد بعضهم في المهنة أن يحدث ذلك بالتأكيد. تحذّر النقابة الأمريكية للأمراض الجلدية من القيام بعدّة إجراءات مرة واحدة، إلا أن الكثير من المواقع الإلكترونية، التي يتحول إليها الأمريكي العادي، تروّج للفكرة. تدّعي أنه طالما كانت مدة الشفاء الكلية أقصر، والتوقف عن العمل أقصر، والتكلفة أدنى، وليس هناك خطر إضافي بالتخدير مدة أطول - لماذا إذاً لا تقومين بإجراء عملية تكبير الصدر، وفي الوقت نفسه رفعهما، أو شد الوجه وجلد البطن معاً؟ عصفوران بحجر واحد صفقة جيدة، كما يبدو، بغض النظر عن ماهية الصناعة.

نسبة مرضى الجراحة التجميلية الذين يقومون بعدة عمليات للوجه في السنة نفسها، 2001-2005

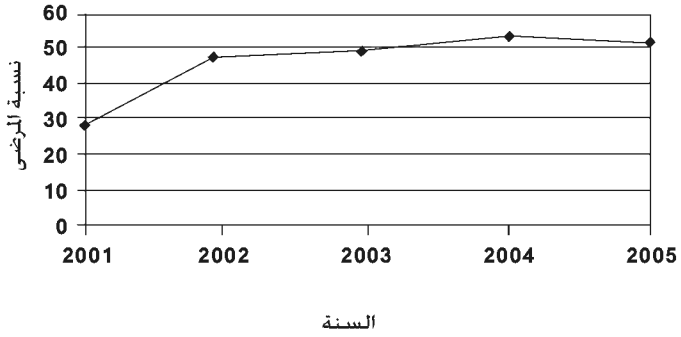

المصدر: الأكاديمية الأمريكية لجراحة ترميم وتجميل الوجه. 2006.

وتصادق الثقافة الشعبية على الأمر. في برنامج على محطة إيه-بي-سي ABC سنة 2002 بعنوان التحول الجذري، يمكن للأمريكيين تحقيق «حلم حياتهم وأساطير الحكايات الخيالية»، عندما تظهر فرق من جرّاحي التجميل، وأطباء الأسنان، وأطباء الجلد، وجرّاحي الليزر، و«مختصي رشاقة» في حياتهم لإصلاح كل ما لم تتمكن الطبيعة من إصلاحه.

يعكس توسع الجراحة التجميلية في أمريكة نظرياً هوساً منفلتاً من عقاله بالشباب. حتى عندما تتقدم أمريكة في العمر، لا يزال لدى الناجحين بعمر +60، وهم الجيل الأكثر عدداً رغبة في أن يظهروا ويشعروا مثل أبناء الثلاثين. وتقول ثقافتنا: «عليك بذلك». كما كنا قد رأينا في أماكن أخرى من هذا الكتاب، يعيش الأمريكيون في حقبة حرية الإرادة. أصبح الناس أكثر استعداداً وقدرة من قبل لمواعدة من يرغبون، والتصويت كيفما يشعرون، وإنجاب أطفال وقتما يشاؤون، وعبادة الإله الذي يريدون، دون الأخذ في الحسبان أي قيود سواء بيولوجية أو ثقافية كانت تثقل كاهل آبائهم وأجدادهم. من يهتم لما كنت أبدو عليه؟ من يهتم لما يبدو عليه ابن الخمسين «على نحو طبيعي»؟ سأستفيد من المعلومات والموارد والخبراء المتوافرين، وأعيد تشكيل جسدي كما أشاء.

ستكون هناك نتائج لذلك. كان الصحفي في نيويورك تايمز ماورين دود قد استغرق في تأملاته قائلاً: «ماذا يحدث وراثياً عندما ينجذب رجل قام بتصحيح أنفه، وتكبير

ذقنه، وإرجاع أذنيه إلى الخلف إلى امرأة وسّعت عينيها وكبّرت شفتيها وشدّت وجهها؟ وأنجبا طفلاً ونظرا إلى بعضهما وتأوها:«يا إلهي، من أين جاء هذا الطفل البشع؟». جراحة تجميلية للأطفال، بالطبع.

وهناك Catch-22 في هوليوود. لا يمكن لأحد أداء دور كبير اليوم دون وجه ناعم تماماً؛ لهذا يتسابق الجميع للحصول على بوتكس. لكن مع وجوه معدلة تجميلياً، لا يمكن لأحد فعلاً إظهار أي مشاعر حقيقية على وجهه. هل انتهى أمر الشخصيات متوسطة العمر في الأفلام؟ من الآن فصاعداً، هل ستكون كل شخصية في فيلم جديد تحت سن 25؟ حتى إذا كنت تؤدي أدوار شخصيات عمرها 40 سنة؟

وماذا عن مهنة الطب عموماً؟ حالياً، الجراحة التجميلية اختصاص صغير نسبياً بين الأطباء المجازين. لكن على نحو متزايد، يدرك الأطباء الذين يتدربون على الطب العام، وحتى في اختصاص الطوارئ، أن «عمل الجمال الطبي» - مع عدد قليل من حالات الطوارئ فيه، وصفر استدعاء في الليل، والاستقلالية عن شركات التأمين، والدفع في اليوم نفسه، وانخفاض تكاليف عدم الرضا عن النتائج - مكان رائع للوجود فيه. على الأقل، بالنسبة لهم. لسوء الحظ، هناك حالياً نقص كبير في الأطباء ضمن الأفق المنظور، مقارنة بالاحتياجات الطبية المتوقعة للمتقدمين في العمر. إذا تحول المزيد من الأطباء لخدمة الأصحاء بدلاً من مداواة المرضى، فسيصبح الوضع أسوأ.

بالرغم من ذلك، توقع ازدهار «الطب التجميلي»، ونوع من التسابق بين الأطباء على من يتخصص به. (هل يستطيع أطباء النسائية القيام بتقشير الوجه حقاً؟). انظر أيضاً إلى الدعاوى القضائية التي يرفعها مرضى يحصلون على حواجب جديدة من أطباء يتبين لاحقاً أنهم في الواقع مختصون في الطب الداخلي.

ربما لا يعيش الناس إلى الأبد. لكن بالنسبة للعديد منهم، مظهر العيش للأبد كافٍ، وهم مستعدون للقيام بجراحة بعد أخرى لجعل تلك حقيقة. في حين هدف معظم الناس هو تفادي الأطباء، يشعر «محبو الجراحة» بالعكس تماماً - يخضعون لأحدث وأفضل عمل جراحي لمنحهم مظهر الشباب. ربما سينتج عن هذه النزعة جيل من النرجسيين. أو ربما ينجم عنها جيل واثق من نفسه في التغلب على حظه العاثر عندما يتعلق الأمر بالمظهر.

الصورة الدولية

يبدو الأمريكيون وحيدين، عالمياً، في أثناء اندفاعهم نحو جرّاحي التجميل لإجراء شدٍّ لجلد البطن أو تصحيح للأنف. وفقاً لدراسة قام بها إيه-سي-نلسن ACNielsen في تشرين الثاني 2006، 80 % من الناس في إحدى وأربعين دولة قالوا: إن الجراحة التجميلية «ليست خياراً». تقطّب آسية جبينها على ذلك بنسبة أعلى، وبلغ معدل عدم قبولها 86 %.

يشير ذلك، على أي حال، إلى أن هناك أشخاصاً حول العالم سيودّون الانتظار مع الأمريكيين في عيادات جرّاحي التجميل.

- قال عدد كبير من السكان في روسية (48 %)، واليونان (37 %)، وجمهوريات البلطيق (35 %)، أيرلندا (31 %)، وتركيا (29 %) إنهم «سيفكرون في الجراحة التجميلية عندما يكبرون». كان التشيك والألمان والنرويجيون والهنغاريون ضد ذلك على نطاق واسع.
- على الرغم من أن معظم الدول ضمن قائمة أكثر 10 تفكيراً بالجراحة التجميلية أوروبية، إلا أن كوريا نأت بنفسها جانباً عن النزعة الآسيوية بالتعبير عن الاهتمام بمعدل 28 %. على الرغم من أن الكثير من الآسيويين لا يوافقون على الجراحة التجميلية (94 % في هونغ كونغ، 92 % في أندونيسية)، إلا أن هناك 1200 جرّاح تجميل في كوريا، وهي أعلى نسبة إلى عدد السكان في العالم. (للمقارنة، لا يوجد في كاليفورنيا سوى نحو 900).

كما هي الحال في الولايات المتحدة، يزداد عدد الرجال الذين يحبون الجراحة في العالم. يحتشد أثرياء إيرانيون لإجراء عمليات تصحيح أنف، ويسعى رجال أكراد سراً لإخفاء معالم الشيخوخة وزرع الشعر، ويتقاطر رجال كوريون لإجراء عمليات من كل الأنواع.

أظهرت إحدى الدراسات عن رجال كوريا الجنوبية الذين تتراوح أعمارهم بين 25-37 أن 86 % منهم يظنون أنه إذا كان مظهرهم جيداً وجسدهم رشيقاً، فسيكونون أكثر منافسة في سوق العمل. كان زهاء 56 % منهم غير راضين عن أجسادهم.

الجانب العالمي الآخر لارتفاع عدد العمليات هو أن المزيد من الناس يصعدون على متن طائرات ويشتركون في «سياحة الجراحة التجميلية» - من أجل الحصول على أسعار أفضل لعملياتهم. تتضمن المقاصد المفضّلة فنزويلا والبرازيل وجمهورية الدومينيكان وكولومبيا والإكوادور والمكسيك وتايلاند، وجنوب إفريقيَّة.

أجسام صغيرة، نفوذ كبير

ليس هناك نقص في الوثائق - بما فيها الواردة في هذا الكتاب- بشأن أن أمريكة تصبح أكبر. الرجال أطول قامة بنحو ثلاث بوصات، بالمعدل، مما كانوا عليه قبل قرن. كل من الرجال والنساء أثقل وزناً بخمسة وعشرين رطلاً (11 كيلوغراماً تقريباً)، بالمعدل، مما كانوا عليه قبل أربعين سنة. كما قال بيتر غابرييل في أغنيته الرائجة «زمن كبير»، تصبح سياراتنا ومنازلنا وعيوننا وأفواهنا أكبر وأكبر وأكبر. إنها أكبر كثيراً من الحياة نفسها.

لكن على الرغم من أن الكثير في أمريكة مدهش، إلا أن هناك مجموعة كبيرة من النساء صغيرات القوام اللواتي يؤكدن أن الحجم لا يهم. أو بخلاف ذلك، إنه مهم حقاً (إذا كان يتعلق بهن) - ولا يسمحن بأن يشكل قوامهن الجسدي الصغير عائقاً أمامهن.

إنهن «صغيرات القد القويات» في أمريكة.

لفتت تلك النساء نظر أمريكة لهن في أيار 2006، عندما نقلت نيويورك تايمز أن ثلاثة من أكبر الأسواق المركزية -نيمان ماركوس Neiman Marcus، ساكس Saks، وبلومنغيدل Bloomingdale- قد قلّصت كثيراً أو ألغت الأقسام المخصصة لصغيرات القد.

ارتفع الاحتجاج والصراخ، من ارتفاع 152 سم عن الأرض. من هيوستن إلى أورلاندو إلى فيلادلفيا إلى فيرسنو، اندفعت صغيرات الحجم للتعبير عن آرائهن، وقلقهن. مع نهاية حزيران، كانت ساكس قد غيرت رأيها، وأعاد بعض مصممو الأزياء، الذين كانوا قد أغلقوا خطوط الإنتاج المخصصة لصغيرات الحجم استجابة لقرارات الأسواق المركزية، الإنتاج مجدداً.

كان واضحاً أن «نساء صغيرات الحجم» يشكلن «عملاً كبيراً».

لدى التفكير فيما حدث، يبدو أن تلك الأسواق المركزية كانت قد اتخذت قراراً منطقياً. في حين كانت الأحجام الكبيرة تشكل صناعة متنامية بوجه عام - ارتفعت 11 % إلى 10 مليارات دولار سنة 2005، مع توسيع سلاسل متاجر مثل ذا غاب The Gap وآن تايلور Ann Taylor لخطوط إنتاجها - انخفضت نسبة الحجم كثيراً في مبيعات الأسواق المركزية. أراد تجار التجزئة إفساح المجال للحقائب والأحذية والجينز التي كانت مبيعاتها أفضل.

لكن السيدات صغيرات الحجم في أمريكة أَبَيْنَ ذلك.

تبين أن معظم المحتجات اللواتي رفعن عقيرتهن عالياً من متسوقات النخبة (كانت تلك ساكس ونيمان ماركوس، بالمحصلة) وأنهن عميلات منذ عقود، مما يعني أنهن أصبحن أكبر سناً. بالفعل، توقعت بعض القصص الإخبارية أن أحد الأسباب التي دفعت تلك المتاجر للتراجع عن قرار إلغاء أقسام صغيرات الحجم كان خشيتها من خسارة علاقتها مع سيدات أكبر سناً، وأكثر إلحاحاً - بالتحديد أولئك اللواتي يخرجن يتأرجحن من ثقل الأكياس التي يحملنها.

لكن عن وضع ذلك جانباً، يوحي احتجاج نساء صغيرات الحجم سنة 2006 بشيء عن نساء قصيرات في أمريكة.

لكن حتى مع ازدياد طول الأمريكيين، إلا أن عدد النساء صغيرات الحجم لم يكن أكبر مما هو عليه اليوم.

في صناعة الملابس، «صغيرة» تعني ثياباً لنساء بطول 162 سم وأقل. إضافة إلى «ناشئات» (مراهقات)، «آنسات» (نساء يبدأ طولهن مع 165 سم)، و«أحجام كبيرة» (أحجام 14-28)، تُكمل «صغيرة» فضاء الملابس النسائية. إضافة إلى ردنين أقصر، ملابس صغيرة تعني عادة أيضاً كتفين أضيق، إبطين أعلى، أزراراً أصغر، ومسافة أقصر من الخصر إلى الردف. إذا كان طولك 155 سم، وحاولت ارتداء ملابس آنسات، فلن تجدي نفسك تشدّين السراويل وترفعين الردنين فقط، وإنما تشتكين من البطانة

الداخلية المتهدلة وحشوتي الكتفين الكبيرتين مثل ملابس لاعبي كرة القدم. سيكون الأمر محرجاً.

ما سبب ارتفاع أعداد سيدات صغيرات الحجم؟

جزء منه هو أن نساء اليوم يعشن مدة أطول. كانت فتاة أمريكية ولدت سنة 1900 تتوقع العيش 43 سنة فقط؛ في حين يمكن لفتاة أمريكية ولدت سنة 2000 أن تعيش حتى 80 سنة. في حين يتقدم السكان في العمر، تحمل المزيد من النساء في أمريكة مورثة حقبة أبكر، عندما كان الناس أقصر طولاً. أدّى ذلك إلى ازدياد أعداد النساء صغيرات الحجم.

ثانياً: كل ذلك التقدم في العمر يعني مقداراً معقولاً من الانكماش. ابتداءً من عمر 50. تبدأ الغضاريف التي تفصل بين فقرات عمودنا الفقري في الترقق، ونفقد بعضاً من طولنا. في عمر 80، نفقد ما معدله بوصة ونصف (نحو 4 سم). ناهيك عن ذكر الانكماش الناجم عن هشاشة العظام وتمزق الأنسجة، وتغييرات في وضعية الجلوس، وتقوس الساقين، والترقق المتزايد لعظام الردفين والركبتين – كل تلك الأمور شائعة مع التقدم في العمر. يمكن أن تؤثر بعض من تلك الأعراض متساوقة في قياس«آنسة» طوال عمرها فتجعلها «صغيرة الحجم».

لكن الأكثر أهمية أن أغلبية المهاجرات في أمريكة أقصر طولاً، بالمعدل، من السكان المولودين فيها. كانت الهولنديات، اللواتي يُعددن أطول النساء على الأرض، الأطول بين المهاجرات إلى أمريكة في ثمانينيات القرن التاسع عشر. كانت السويديات والنرويجيات أيضاً الأطول في بداية القرن العشرين. في النصف الأخير من القرن الماضي، كانت الأغلبية الساحقة من المهاجرات إلى أمريكة من اللاتينيات والآسيويات، اللواتي كن أقصر ببوصتين أو ثلاث من معدل المرأة الأمريكية. على الرغم من أن أعدادهن لم تكن كبيرة بما يكفي لإنقاص معدل الطول في أمريكة، إلا أنهن، يدفعن – مع أكثر من 1 مليون كل سنة – قياس الحجم الصغير إلى مستوى جديد.

ستظن أن ازدياد أعداد صغيرات الحجم سيدفع مصنّعي الملابس إلى إنتاج أشياء مخصصة لهن. لكن عموماً، يلاحق مصنّعو الملابس نزعة البدانة، ويحاولون تقديم ما

تحتاجه الفتيات الممتلئات والرجال طويلو القامة ذوو الأجساد الضخمة. افتتحت سلسلة لين براينت Lane Bryant خمسة وسبعين متجراً جديداً في تموز 2006 وحده. من يرتدي ملابس صغيرة؟

إليك التأثير المهم الآخر لصغر الحجم والابتعاد عن الاهتمام. كانت «صغيرات الحجم» قد ألقين الضوء على حقيقة جديرة بالملاحظة هي أن مصنّعي الملابس لا يعرفون حقاً حجم أي منا. تم وضع القياسات النموذجية التي يستعملها مصنّعو الملابس في أمريكة- مثل نظام 6-8-10-12 الذي تعتقد معظم النساء أنه نشأ في زمن غابر - في الخمسينيات، كيفما اتفق، ولسكان أصغر حجماً بكثير، وأكثر تجانساً مما هي عليه أمريكة الآن.

استمر الأمر على تلك الحال لغاية سنة 2004 عندما وحّدت وزارة التجارة جهودها مع التجار لإعادة تحديد المقاسات في أمريكة- وضعت الوزارة 10.000 متطوع يرتدي ملابس داخلية في خزانة يغمرها ضوء أبيض وسجلت مئات مقاييس الجسد الدقيقة في أقل من دقيقة. لكن حتى الآن، لم تعلن شيئاً، ويقول خبراء: إنه من غير المرجح قيام ثورة فيما يتعلق بملابس أمريكة اليومية في أي وقت قريب.

ما كشف عنه الباحثون هو أن جسد المرأة الأمريكية النموذجي كان مثل ساعة رملية، وأصبح الآن مثل إجاصة. أضحى الردفان الآن أعرض من الكتفين. نحن طوال، قصار، وكل المقاسات بينهما - كما يقول شارع سمسم دائماً. لكن نتيجة لذلك، هناك حقاً سوق لا يبدو ظاهراً للعين المجردة.

على الرغم من أن التصميمات النموذجية ربما لا تناسب أحداً سوى صاحبة القد الميّاس، إلا أن بقيتنا ربما كانوا قد تعلموا شيئاً من «نساء صغيرات الحجم». ربما حان الوقت لنندفع جميعاً إلى جادة نيويورك السابعة، أردافنا بارزة وأكتافنا ضيقة. تقول نصف النساء الأمريكيات: إن الأزياء الحالية لا تناسبهن، وإنهن عندما يجدن ملابس يحببنها، لا يعثرن على قياسهن. سواء كان الناس يصبحون أقصر أو أطول قامة، سيحبون جميعاً الحصول على ملابس تناسبهم. وصانعو الملابس الذين سيقدمون تلك الثياب سيتمتعون بميزة تنافسية كبيرة بالتأكيد.